طلبة السنة الثانية–أدب–

عنوان المحاضرة: الإرهاصات الأولى للحداثة

الأستاذة: خالص زهرة

1–مفهوم الحداثة عند الغرب

إن البحث عن حقيقة الأشياء يستلزم بالضرورة إحاطة، أو قل معرفة بالمصطلح المقصود وكلها تستدعي العودة إلى بيئته التي نشأ فيها وبلسان أصحابه، ما المقصود بالحداثة عند الغرب؟

الحداثة حركة فكرية عقلانية علمية هدفها تغيير المفاهيم والمناهج التقليدية التي تعالج الفن والأدب وإرساء مفاهيم وقواعد جديدة. والحداثة عند الغرب شملت مجالات عديدة وهذا ما أضفى عليها صفة العالمية، فالحداثة باعتبارها منهجا أو طريقة في التفكير لم تكن حكرا على مجال دون آخر فإلى جانب الأدب والنقد موضوع البحث، فقد تبنته السياسة والاقتصاد والتاريخ وعلم الاجتماع ...تماما هذا ما أكده "جان بوديار" عندما قال بأن الحداثة ليست مفهوما سوسيولوجيا أو مفهوما تاريخيا فقط بل يتعدى هذا وذاك إلى تخصصات أخرى، كيف لا وموضوع الحداثة اعتبر صفة بشرية أو نزعة إنسانية، وهذا ما يجعلها تتعالى عن كونها لصيقة بتخصص دون آخر.

نشأ مصطلح الحداثة ضمن حقل النقد الأدبي ثم استمر ووظف في حقول معرفية أخرى كالاجتماع والسياسة والتحليل النفسي والألسنية والاقتصاد واللاهوت ...ليشير إلى فترة زمنية تاريخية مر بها الغرب.

هذا عن مجالاتها أما عنها فمصطلح الحداثة يصعب تحديده، ربما لأنه متجدد مستمر في الزمن يأبى الرضوخ ولا يقبل التجاوز. فمفهوم الحداثة مفهوم عائم ملغوم يلغي ذاته باستمرار بيد أنه استطاع أن يخلق فينا ردودا متناقضة وتوترا نادرا بين الارتكاس والانبهار بين الدعاية اللامشروطة والرفض المبرم.

إذن الحداثة تنشد التغيير والتجديد والاستمرار الذي يجعلها تتغلب على كل من يحاول حصرها وتقييدها بمعنى محدد.

الحداثة بمفهوم الغرب تنشد الجديد دائما وأنها كمصطلح ظهر في النقد وشمل الفن والأدب، وهو مصطلح يصعب علينا أن نمسك بالمعنى فيه لأنه يتغير ويتبدل ويظهر كل مرة بشكل جديد.

إذن مصطلح الحداثة يوضع اليوم تحت الترجيح ويدخل ضمن المفاهيم المستعصية على التعريف والتحديد الرافض لكل نمذجة. وهذا ما يجعله مستقطبا للأنظار محتلا للصدارة، ولأنه كذلك ما لبث أن شمل مجالات عديدة مستوليا بذلك على العقول، فسرعان ما أصبح شعارا للفرد وملاذا وجده أخيرا بعد رحلة بحث دامت قرون، فيصبح بهذا المعنى طريقة في التفكير قبل أن يرحب به أي علم ويوظف ما جاء به. لكن لا يختلف اثنان في كون الحداثة محاولة لتجاوز كل ما هو تقليدي، فهي تهدف إلى التجديد وبالتالي تنبذ القديم وتتركه وراءها معتبرة إياه من التاريخ، أحد المسائل التي عملت الحداثة على تجاوزها.

-جذور الحداثة الغربية:

عاش العالم الغربي فترة ظلام دامس عرفت بالقرون الوسطى أو العصور الظلامية، مر فيها الغرب بأحلك أيامه وأسوئها على الإطلاق نزل فيها الفكر إلى أسفل الدركات وعم الجهل نتيجة سيطرة رجال الكنيسة حيث منعت كل أنواع الفكر والوعي، وعدت المعرفة نوعا من التطاول ينبغي القضاء عليها.

كان من حق رجال الدين معاقبة أي كان دون أن يكون له الحق في الدفاع عن نفسه حتى اتهموا وحاكموا الموتى وصادروا أملاكهم، هي بالفعل فترة يشهد التاريخ على أنها سبقت عصر النهضة.

والمثير للدهشة أن من مهد للنهضة هم رجال الدين، طبعا كان هذا شعاع النور الذي توسط دياجير الظلام في أوروبا، بعدما كانوا يؤمنون بالأسطورة أو التفكير الأسطوري، وهو ما كان سببا كافيا ليعم الجهل فالأساطير غالبا ما تدخل فيها قوى وكائنات أقوى وأرفع من البشر تدخل في نطاق الدين فتبدو عندها نظاما شبه متماسك لتفسير الكون. وكنتيجة منطقية لتغييب العقل عاش هؤلاء حياتهم معتمدين على ما

تمليه عليهم أوهامهم وجهلهم، إن في وسع المخيلة البشرية إفراز هذيان كثير حين هي ليست تحت سلطة العقل والمنطق.

كان لظهور العلم والأفكار التنويرية أثر كبير في تخليص أوروبا من ظلامها وأول خطوة خطاها هؤلاء هو التخلص من السيطرة الإقطاعية والعمل على إثبات مبدأ العدل والمساواة فقد كان المجتمع آنذاك مقسما إلى طبقات، طبقة قاهرة وأخرى مقهورة.

كما أصبح العلم الراية الوحيدة التي استطاع الغرب من خلالها تجاوز الترهات والخرافات التي فرضتها الكنيسة فحجبت من خلالها حقائق كثيرة أهمها المكانة التي احتلها الفرد في المجتمع وقيمته كذات عاقلة تنشد الحرية. إن حاجة الانسان إلى الفكر والمعرفة ورغبته في الجمال وغريزته نحو المجتمع، كلها تتطلب الإحساس بمثيراتها بها والإحساس بها.

كلها كانت بواعث لدخول أوروبا عصر جديد عرف بالحداثة كإعلان عن نهاية الميتافيزيقا وبداية عصر العلم والتجربة وإرادة الانسان ككائن عاقل لا تحكمه الأساطير ولا إرادة الآلهة.

فالحداثة الغربية قد آلت كمشروع ميتافيزيقي إلى نهايتها، وأشرفت على تمامها واستيفاء إمكاناتها حين صارت ماهية الإنسان تعلو على ذاته إلى مصاف الإنسان الأعلى وأيضا حين صارت المعرفة تمثلا والعلم حضورا للعالم كصورة موضوعة إزاء الذات وحين صارت التقنية الكوكبية هيمنة على الأرض واستيلاء على ماهية العالم.

إذن الحداثة مرتبطة أشد الارتباط بالمسار التاريخي والظروف التي مر بها العالم الغربي أثناء تجاوزه لفترة العصور الظلامية، يعني أنه لا يمكن فهم معنى الحداثة دون العودة إلى الظروف التاريخية التي كانت سببا في ظهورها بمعنى آخر لا يمكن فصلها عن الفترة السابقة لميلادها. فالحداثة نتاج غربي محض ونتاج لتطور تاريخي غربي.

كانت الحداثة صورة تجلى من خلالها حلم العالم الغربي في البحث عن عالم مثالي بعيد الاعتبار للإنسان بعد أن أرهقته قوانين الكنيسة الظالمة.

كلها مستجدات حملها القرن 17م تجلى من خلالها الثورة الصناعية، والعلم التجريبي، والثورة الفرنسية كصورة للوعي والفكر التنويري الذي ناد به الفرنسيون، معلوم أن أوروبا شهدت بين القرنين 17م و18م جملة من التحولات الجذرية في ميدان الثقافة ومجال العمران البشري والاقتصاد والسياسة ومعلوم أيضا أن هذه التحولات الشاملة بلغت ذروتها مع الثورة الصناعية في إنجلترا والثورة الفرنسية.

فكان للعلم التجريبي والفلسفة العقلية الدور الكبير في تجسيد معنى الحداثة.

-العلم التجريبي:

على الرغم من محاولات الكنيسة في تجميد العقول، استطاعت الأفكار العلمية الداعية للتحرر من سلطة الكنيسة الانتصار في النهاية، وقلب الموازين كان ذلك إيذانا بانقضاء عصر السيطرة على البشرية، وتصدر الانسان مركز الريادة، فأصبح هو من يتحكم في العالم وليس العالم من يتحكم فيه.

كان العلم هو الباعث على ذلك فظهرت العلوم الطبيعية والفيزيائية استجابة للأفكار التي جاء بها "غاليلي" حين اكتشف أن الأرض ليست ثابتة في مركز الكون وهذا ما دحض أفكار "أرسطو"، و"بيكون"، وجون لوك"، و"هيوم".

على العموم استطاع العلم تغيير الفكر، فأصبح هناك مفهوم للسببية واليقينية وكله استدعى التجربة والملاحظة وبالتالي التخلص من الأفكار المخيفة التي خلفتها القرون الوسطى عندما كانت تبني العالم على أساس أنه يخضع لإرادة ماورائية.

-الفلسفة العقلية:

لم يكن العلم وحده من أخرج العالم الغربي من ظلامه بل كان للفلسفة أيضا دور كبير في تعديل مسار الفكر.

إن التفكير الفلسفي الذي اعتمد العقل طريقا للوصول إلى الحقيقة في الواقع لم يكن سوى استجابة لما جاءت به الثورة العلمية وتأكيدا لمركزية الوجود البشري في مقابل ما تدعو إليه الكنيسة من اعتماد الدين كوسيلة وحيدة للوصول إلى الحقيقة فأصبح العقل محل العقيدة والإيمان.

وعليه ظهر المذهب المثالي الذي يقر بأنه لا وجود لكائنات أخرى غير الكائنات العاقلة والموضوعات الأخرى التي نظن أننا ندركها بالعيان ليست إلا تمثلات في الكائنات العاقلة لا يقابلها في الواقع أي موضوع خارجي.

ولعل رائد الفلسفة العقلية دون منازع هو "ديكارت" باستحداثه للشك المنهجي تحت شعار "أنا أفكر إذن أنا موجود." من خلال هذه المستجدات أصبح من الممكن تجاوز الأفكار الظلامية وإرساء قواعد لفكر جديد قوامه العقل والتجربة.

وبناء على ذلك كان لابد للأدب أن يستجيب لهذه الثورات الفكرية وأن يتجه بالشعر والنقد اتجاها آخر ينشد في ذلك كسر المألوف واعتماد التغريب وسيلة في الإيضاح، في نفس الوقت حاول توظيف ما وصل إليه العلم والعقل عند الغرب فما لبث أن ارتبط النقد بالفلسفة بعد أن انفصلت عنه لبعض الوقت وكذلك كان للعلم حضورا وضحا، متمثلا في المنهج الوصفي.

إذن فالحداثة مرتبطة عند الغرب بالفكر والإيديولوجية وبقناعات هؤلاء أيضا فهي ليست بريئة كما تبدو للناظر بل تحمل في طياتها حضارات أمم بأكملها.

2-ضبط مصطلح الحداثة العربية:

الحداثة العربية، أحد أبرز المواضيع التي مازالت إلى اليوم تطرح النقاش إن لم نقل الجدل.

-هل توجد حقا حداثة عربية أم أنه في الحقيقة لا وجود لها؟

-وإن كانت موجودة حقا، أهي أصيلة أم أنها مجرد دين ندفع ثمنه اليوم بالتبعية؟

في الحقيقة لا يمكن ضبط مصطلح الحداثة إلا إذا قمنا بتحديد مقارنة بألفاظ أخرى كثيرا ما يقع الخلط بينها وبينه ألا وهي الجدة والمعاصرة. فالمعاصر يرتبط بالعصر فيكون بذلك ذا دلالة زمنية، أما الجدة فلا ترتبط بالزمن إذ قد يكون الجديد في القديم كما يكون في الحديث، أما الحداثة فتعني إيجاد ما لم يكن موجودا من قبل.

يشغل مصطلح الحداثة حيز التعدد، والاختلاف، والغموض والخلط عند العرب وما جاء على لسانهم، فنجده يحمل معاني عديدة يحددها المجال الذي نود معرفة معنى الحداثة فيه. فكلمة الحداثة تجري مجرى الدال المتعدد الوجهات طبق تعدد صوره اللغوية القائمة في أذهان المستعملين وإن كنا نعجز عن تحديد المجالات التي غزتها الحداثة لكثرتها فعلى الأقل يمكن أن نعطي أمثلة توضح بأن الحداثة تلبس معنى جديدا كلما تغير المجال. فعلميا تعني الحداثة إعادة النظر المستمر في معرفة الطبيعة للسيطرة عليها، وتعميق هذه المعرفة وتحسينها ثوريا. تعني الحداثة نشوء حركات، ونظريات، وأفكار جديدة، ومؤسسات، وأنظمة جديدة تؤدي إلى زوال البنى التقليدية في المجتمع وقيام بنى جديدة. ففنيا تعني الحداثة تساؤلا جذريا يستكشف اللغة الشعرية ويستقصيها، وافتتاح آفاق تجريبية جديدة في الممارسة الكتابية وابتكار طرق للتعبير تكون في مستوى هذا التساؤل، وشرط هذا كله صدوره عن نظرة شخصية فريدة للإنسان والكون.

وإن اختلف مفهوم الحداثة من مجال إلى آخر يبقى في الأخير يجتمع في نقطة ربما تكون هي الأساس أو البؤرة التي تقوم عليها الحداثة ألا وهي مفهوم التجاوز، ورفض التقليد وكل ما هو قديم لأن الحداثة سمة للأقوال والأشياء غير المعروفة من قبل وبهذا المعنى لكل عصر حداثته.

وفي النقد كان ارتباطها باللغة يوحي لنا بأن الحداثة هي حركة تغيير، تصيب اللغة فتقضي بعدولها على المعيار المألوف وكسرها للنظم الرتيبة التي تحكمها وكأنها تصنع لنا لغة تتعمد الخطأ بغية الوصول إلى التفرد والتميز.

وكأن هذه المفاهيم توحي بتشابه كبير بين الحداثة الغربية والحداثة العربية اليوم، فهل هذا يعني أن للحداثتين نفس المنابع؟ لنعرف ذلك لابد من البحث في جذور الحداثة العربية.

-جذور الحداثة العربية:

يبدو أن البحث في جذور الحداثة العربية أوغل من البحث عنه عند الغرب، فيرى النقاد أن جذور الحداثة العربية تعود إلى القرن السابع الهجري، لأنه آنذاك بدأت بوادر اتجاه شعري جديد تمثل في بشار بن برد، وأبي نواس، ومسلم بن الوليد، وأبي تمام، وابن المعتز، وآخرون. وامتدت بعدها إلى طه حسين، وجماعة الديوان، وأبولو، والمهجر.

فكان أبو نواس أول من هدم نظام القصيدة القديمة، أطاح بالمقدمة الطللية واضعا بدلها المقدمة الخمرية، وكذلك فعل أبو تمام برفضه للقديم وسعيه وراء التجديد وعلى الرغم من أن أعماله لقيت أكثر رواجا فقد كانت أكثرها رفضا من طرف أنصار القديم. فكان شعر أبي تمام على الأخص الثورة الأكثر جذرية على صعيد اللغة الشعرية بالمعنى الجمالي الخالص، فسعى من خلال أعماله إلى إرساء مبادئ الإبداع والفرادة متجاوزا بذلك ما استحدثه أبو نواس من خلال مقدمته الخمرية.

اتخذت الحداثة عند أبي تمام بعدا آخر هو ما يمكن أن نسميه بعد "الخلق"، فهو لم يهدف إلى المطابقة بين الحياة والشعر، بل هدف إلى خلق عالم آخر يتجاوز العالم الواقعي. لقد اشتركا في رفض تقليد القديم لكن كلا منهما سلك في إبداعه مسلكا خاصا.

هذا في مجال الشعر أما في مجال النقد، فالحداثة العربية أقرب إلينا منها في الشعر إذ يؤكد الدارسون أنها بدأت مع طه حسين كفكرة، رأى من خلالها أنه إذا أرادنا أن نتفوق أو نخلق ركب الحضارة، علينا أولا أن

نمد بأبصارنا خلف البحار، أي إلى بلاد الغرب وأن نرى ما وصله هؤلاء من تطور وتقدم وعلينا أن نقلدهم ونرسم على منوالهم.

ربما كان الدافع الأول في محاولة التغيير سواء تعلق الأمر بالشعر أو النقد، يعود إلى مقتضيات العصر وتغير الحياة وبالتالي تغير الكيفية التي نرى بها الأشياء. فهناك الكثيرون الذين حاولوا التجديد، ومسايرة العصر، ومجاراة للحياة الجديدة لأنهم وجدوا المجال ضيقا عليهم والأبواب موصدة في وجوههم نحو الابتكار وجدوا القدماء قد عبدوا الطريق وأوضحوا المعالم، فقامت بذلك الحداثة العربية تخطو خطوة إلى الأمام والأخرى إلى الوراء بين مؤيد للتجديد ومعارض لهذه الفكرة.

وبناء على ما تقدم هل هناك وجه شبه بين الحداثة كمفهوم معاصر عند الغرب وبينها عند العرب؟

يرى محمود العالم في كتابه "الجذور المعرفية والفلسفية للنقد الأدبي العربي الحديث والمعاصر"، ص:100" أن مختلف الاتجاهات في نقدنا الحديث والمعاصر عامة هي أصداء لتيارات نقدية أوروبية وبالتالي فهي أصداء كذلك لما وراء هذه التيارات من مفاهيم إبستيمولوجية وإيديولوجية". ويرى أدونيس في كتابه "الشعرية العربية"، ص84 "أن الحداثة في المجتمع العربي لا تزال شيئا مجلوبا من الخارج إنها حداثة تتبنى الشيء المحدث، ولا تتبنى العقل أو المنهج الذي أحدثه فالحداثة موقف ونظرة قبل أن تكون نتاجا".

إذن يرى كل من محمود أمين العالم كممثل للمتقدمين، وأدونيس كنموذج للمتأخرين أن الحداثة تدخل ضمن الأشياء المجلوبة من الغرب.

فحداثة العرب حداثة ارتبطت بالحياة الراهنة، فكانت استجابة لها، وهو ما قضى بموتها وهي في مهدها، أو بعبارة أخرى فهي لم تنشأ نتيجة فكر معين أو فلسفة بل كانت تجديدا اقتضاه عدم جدوى الوسائل التقليدية، لذلك لا يمكن الحديث عن حداثة عربية. وبالتالي فحداثتنا اليوم غربية تلقيناها من الغرب، وحاولنا أن نؤقلمها مع مناخنا الفكري وهو سبب عدم وضوح المصطلح وغموضه وإن ادعى بعضهم أنه أصبح ملكا لنا، لكنه في الحقيقة لا يمكن أن يفرغ مما يحمله من فكر، وثقافة، وفلسفة كانت

سببا في ظهوره. فلا يمكن ربط النقد العربي بالنقد الغربي في إطار التصور القائم على اعتبار النقد علما يجوز تطبيقه على الظواهر الأدبية كافة في مختلف البيئات الحضارية.

واجب منزلي:

يقول الناقد عبد الغني بارة:

"فالحداثة وإن كان مفهوما يصعب تحديده يبقى ذلك المفهوم الساعي إلى الجدة ومواكبة كل ما هو مستحدث، وبفضل هذه الصفة التي ميزتها استطاعت أن تمتص كل المشاريع التي جاءت بعدها تحت شعار أن الحداثة إلى اليوم لا تمتلك معنى محددا وبالتالي فكل ما جد هو ضمنها إلى حين، فالحداثة في النهاية ثورة على التقليد ورهانا على التجريد والتجريب والتجديد."

-عبد الغني بارة، إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر (مقاربة حوارية في الأصول المعرفية)

السؤال: حلل وناقش هذه المقولة

ملاحظة: تسلم أوراق الإجابة للسيد رئيس القسم قبل يوم15 أكتوبر2020م.